السِّياسةُ اللّغوية في الدّول العربية والإسلامية
أزمةُ الهَويةِ والوُجود

أ.د. محمد عبد المطلب البكّاء

تَمْهيـــــد

إنَّ دراسةَ موضوع السّياسة اللغوية (أزمة الهوية والوجود) في هذه الظروف الحرجة، والخطيرة التي تجتازها الأمة العربية،والإسلامية ليست من السهولة بمكان،في ظل تداعي الأمن القومي لكثير من بلدان عالمنا العربي، والإسلامي،واحتلال بعضها الأخر بشكل مباشر،أوغير مباشر،والذي لا ينكر أثره في التأثير،والتأثر في رسم السياسة اللغوية،من هنا تأتي أهمية هذا البحث، إذ يرى علماء اللسانيات: أنَّ اللغةَ والهوية شيءٌ واحد،فإذا كان حدُّ اللغة عند علمائنا العرب كما عبر عنه ابن جني،بالقول: " أما حدّها فإنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"(١).فإن المقصود بـ (الهَوية)، هنا هوية الفرد، وهوية المجتمع، ولهذا يمكن تأسيس الكيانات الاجتماعية والسياسية على أساس لغوي، وبذا نرى خطورة المكون اللغوي في تحقيق، أو زعزعة الاستقرار السياسي للمجتمعات، ولعل من أكبر المشاكل السياسية في العالم المعاصر تلك المتعلقة بالصراع العرقي، والذي لا يبعدُ كثيراً عن المسالة اللغوية حيث يحصل في المخيال الجمعي للأمم تماه خطير بين العرق، والوحدة اللغوية،وهذا ما عقدنا العزم عليه - بعون الله- في هذا البحث الذي لابد من الإشارة إلى أنه يهدف إلى وضع (السياسة اللغوية) في دائرة الاهتمام للأسباب التي سنأتي على ذكرها،وتقديم إنموذج يمكن الاستدلال في ضوئه لتنمية السياسة اللغوية لدفع حركة المجتمع إلى أمام (التقدم الحضاري)، ومن الواضح أن هذه الحركة ذات طابع جماعي، ناتج بالضرورة عن حشد هائل ومتنوع من ألوان التقدم الفردية مما يؤكد حضورها، وفاعليتها.

إنَّ ما نشهده اليوم من كمٍّ هائل من الدراسات، والكتب، والمقالات التي تتناول موضوع اللّغة، والهَوية دليل على أنهما أصبحا:بؤرة السؤال،ومدار السجال في الأوساط الفكرية،واللغوية،والسياسية، والذي يعكس تباين وجهات النظر بين الإسلاميين، والقوميين، والتيار الماركسي الأرثوذكسي على سبيل المثال لا الحصر.وبرغم هذا التباين، والتساؤل لا يعدم الجهد الذي بُذل في تشخيص لغتنا العربية قديماً، وحديثاً، والتي لا تلوذ بالماضي إلا بقدر ما يمكنها من استشراف المستقبل، ذلك أن الشعور باللغة،والهوية القومية قد أصبح منذ القرن التاسع عشر قوة تغيير حافزة على النهوض، والتقدم، والإستقلال، وأنَّ هذا الشعور باللغة العربية، وبالأمة العربية الواحدة هو الذي أطلق الحركة التحررية العربية ضد سياسة التتريك التي كانت قائمة حينذاك،على الرغم من أن الشعورعند العرب في رسم السياسة اللغوية عميق الجذور من الناحية التاريخية، منذ عهد الخلافة الراشدة خشية اللّحن الذي بدأ يتسرب إلى الألسن،والسعي إلى صون كتاب الله العزيز من تسرب اللّحن إليه، إلا أن التعبير الحديث عن الإنتماء العربي قد تأثر بالتيارات الفكرية الغربية التي وجدت طريقها الى المنطقة العربية بعد الثورة الفرنسية، وغزوة نابليون لمصر، والساحل السوري، ولكنَّ ذلك لم يقلل من الإيمان من أن الشعور القومي، والإعتزاز باللغة العربية،والهوية القومية، كان المنطلق من فرضية الإيمان بوحدة الأمة العربية التي يجمعها (لسان الضاد)، بما يشكل قوة أساسية للحفاظ على وجودها في عصر العولمة،ورياح التغيير التي تستهدفها، لأنها القوة الكامنة التي نلجأ اليها، والحصن الحصين لإثبات الذات، ومقاومة التشرذم،

برغم أن السّياسة اللغوية، هي: عبارة عن نوع من التعامل الرسمي لأجهزة الدولة مع اللغة القومية،أو اللغات المستعملة داخل كيان سياسي معين. فاعتبار العربية لغة رسمية (دستورياً) في جميع بلدان العالم العربي يجب أن لايحول – كما نرى- من منح اللغات الكردية، والتركمانية، والأمازيغية ،والأقليات الأخرى مثلاً بعض حقوقها اللغوية المشروعة بما يدخل في إطار السياسة اللغوية من منظار التنوع، لا التجزئة،والفرقة، كما أن اعتماد (الملاوية) مثلاً من قبل الحكومة الماليزية لغة رسمية للبلاد مع السماح للمكونات اللغوية الأخرى باستعمال لغاتها في مدارسها الخاصة يُعدُ من قبيل السياسة اللغوية التي أشرنا إليها،ولعلنا لا نذهب بعيداً بالقول: أنه ليس من الضروري أن تكون السياسة اللغوية منصوصا عليها في القانون حتى تعد سياسة لغوية بل يكفي العرف المتداول في دولة ما لتحديد نوع السياسة المتبعة. لذا سيتضمن البحث مبحثين،هما:

المبحث الأول: اللغة،والهَوية..صراعٌ تاريخي،وحراكٌ سياسي-إجتماعي.

اللّغة: اللُّسْنُ،وهي فُعْلَةٌ من لَغَوْتُ: أي تكلَّمت،أصلها لُغْوَة،وقيل: أصلها لُغَيٌ، أو لُغَوٌ، والهاء عوض،وفي (المحكم): الجمع لُغات،ولُغُون، والنسبة: لُغَوِيٌّ.(٢)،وإذا كان ابن جني قد قال في حَدِّها (كما مرَّ)، فإن ابن الحاجب يرى أنَّ:"حَدَّ اللغة كُلُّ لفظ وضع لمعنى".(٣) ورأى معظم الباحثين:أن اللغة وسيلة إنسانية لتوصيل الأفكار،والانفعالات،والرغبات، عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية.وردد بعض الباحثين:أن اللغة قد تستعمل لإخفاء الفكر،وصارت عبارة (تاليران): "إن اللغة كائنة لتخفي أفكار الإنسان"،عبارة مشهورة في الدراسات اللغوية. ثم رأى باحثون مجددون من أمثال(مالينوفسكي): أن اللغة جزء من السلوك الإنساني،ونوع من العمل ،وليس مجرد أداة تعكس الفكر، وأن وظيفتها ليست مجرد وسيلة للتفاهم، أو التوصيل.(٤).

وذهب فريق من العلماء إلى تفسير اللغة على أساس نفسي وعقلي، ورأى : أن اللغة استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الأفكار، ونقلها من شخص إلى آخر، ومن مؤيدي هذه المدرسة (سابير) (٥). وقيل هي: وسيلة الإتصال المباشر بين البشر عن طريق الألفاظ ، أوالأصوات الوضعية العرفية التي تدل على المعاني، وتختلف باختلاف العصور،والشعوب. وتتأثر اللغة بحضارة الأمة، ونظمها، وتقاليدها، وعقائدها، واتجاهاتها.فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير(٦). ونظر علماء المجتمع إلى اللغة باعتبار وظيفتها الاجتماعية، فعرفها العالم الأمريكي (دجار ستيرتفنت) أنها : (نظام من رموز ملفوظة، بواسطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة). (٧).وقيل، هي :وسيلة للتواصل، وتعريفها النفسي هو :"نظام تقليدي من الإشارات المعبرة تعمل سيكولوجيا في الفرد كوسيلة للتحليل والتركيب الإرادي،واجتماعياً كوسيلة للتواصل،وإذَنْ تكون وحدة اللغة في الجملة.."(٨).وقال ابن خلدون من قبل:" اعلم أنّ اللغة في المتعارف هي عبارةُ المتكلم عن مقصوده،وتلك العبارة فعلٌ لسانيٌ ناشيءٌ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بدَّ أن تصير ملكةً متقرّرة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان". (٩).

أن تعريفات اللّغة هذه بقدر ما تلتقي لتزيد كنه (اللّغة) وضوحاً إلا أنها تفترق بحسب وجهة نظر كل علم إليها. فالفلاسفة، وعلماء المنطق المعاصرون مازالوا يعتمدون مقولة أرسطو في (إنَّ اللّغةَ رمزٌ للفكر)، في حين أن وظيفة اللغة تتعدى ذلك إلى كونها أداة لنقل الأفكار.ولكننا نرى: أن أفضل تعريف للغة بمعناها العملي، هو تعريف علماء الاجتماع الذي يلتقي، وما قدمه العلماء العرب من تعريفات للّغة لأنها: رموز صوتية تنبئ عن مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج إليه الإنسان في حياته. فاللغة إذن : نظام عرفي لرموز صوتية يستغلها الناس في إتصال بعضهم ببعض، وهذا التعريف مع إيجازه يتضمن أموراً أربعة نشير إليها بإيجاز، هي :

أ- النّظام: للغة نظام تخضع له،وقواعد مقررة، فليست فوضى لارابط بينها،فلها نظام معين في توزيع أصواتها،ونماذج محددة في بناء كلماتها وجملها،ولولا هذا النظام